

في فلسفة الفهم: من إبستيمولوجيا المنهج إلى براديغم التأويل

د/ بلال كوسة¹

المدرسة العليا للأساتذة مسعود زغار- سطيف

الجزائر

تاريخ النشر: 2023/12/30

تاريخ القبول: 2023/11/22

تاريخ الإرسال: 2023/11/04

ملخص:

يتجه عمل الباحث في هذه الدراسة إلى تتبع مسارات الدرس الهرمينوطيقي الذي يمثل إبدالا (براديغم) نقديا معاصرا في مرحلة ما بعد الحداثة الغربية، ولكنه قديم قدم قراءة النصوص، فهو ذا أصول دينية مخضتها الحاجة إلى تأويل الكتاب المقدس، وإعادة ترميم الإنجيل مع "مارتن لوتر" في الدراسات اللاهوتية.

بيد أنها قد تشكلت في مسارها بما هي إبدال (نموذج) في القرن 17. حينما أضحت فنا قائما بذاته مع جهود "شلايرماخر"، الذي يرجع إليه فضل سحب التأويلية لتكون مقاربة عامة لكافة النصوص الإبداعية، وبذلك تغدو الهرمينوطيقا فنا قائما بذاته.

ولقد باشر مجموعة من الأعلام مسار التأويلية من "فلهايم دالتاي" إلى "مارتن هايدغر" مروراً "بهانز جورج غادامير"، ووصولاً إلى التأويلية في نسختها الفرنسية مع "بول ريكور" لاسيما في كتابيه: "في التأويل - الخطاب وفائض المعنى"، و "صراع التأويلات".

مقدمة:

مما لاشكّ فيه، والحال هذه، أنّ الهرمينوطيقا* اليوم، تمثل واحداً من التيارات النقدية المعاصرة، وهي قديمة قدم النصوص، إذ هي ذات أصول دينية، مخضتها الحاجة إلى تأويل الكتاب

¹ - أستاذ محاضر. المدرسة العليا للأساتذة - مسعود زغار- سطيف.

* - الهرمينوطيقا Hermeneutik: تترجم غالبا بـ "التأويلية". ونحذ من جهتنا صيغة "فن التأويل" لأنّ شلايرماخر نفسه يقول "التأويل عبارة عن فن". كما تعني عند "جون غروندين" فن تأويل النصوص، ولفظة الهرمينوطيقا Herméneutique مشتقة من الفعل اليوناني هرمينيو Herméneuo الذي يحمل معنى "الترجمة والتفسير والتعبير". وارتبط هذا المفهوم أيضا في التراث الإغريقي، بدور الوسيط/ المترجم أو المؤول والمفسّر L'interpréte، ممثلا في "هرمس" Hermés.

المقدس، من خلال إعادة كتابة الإنجيل، أو إعادة ترميمه إن صحّ التعبير مع "مارتن لوتر" في الدراسات اللاهوتية.

بيد أنّها قد تشكّلت في مسارها كابدال (نموذج) في القرن 17، حيثما أضحت فنا قائما بذاته مع جهود "شلايرماخر" Schleiermacher^{2**} الذي بدأ معه "براديغم"^{***} التأويل، لتكون الهيرمينوطيقا فنا للفهم، وهنا يقول "غادامير": «وهذا ما يسميه "شلايرماخر" "الفعل التكني" وهو يدشن، فضلا عن ذلك، تأويلا يتخطى عتبة النصّ المقدس إلى عالم النصوص الأدبية والفلسفية والفنية، وبذلك ينقل

يُنظر: هانز جورج غادامير: فلسفة التأويل – الأصول، المبادئ، الأهداف، ترجمة: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ص 34. ويُنظر: عبد الغني بارة: الهيرمينوطيقا والفلسفة – نحو مشروع عقل تأويلي- منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008، ص 100، 101، 103. ويُنظر: محمد شوقي الزين: الإزاحة والاحتمال – صفائح نقدية في الفلسفة الغربية- منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008، ص 44.

^{**} - فريدريك شلايرماخر دانييل أرنتس Schleiermacher Frierich Daniel Ernst: (1768- 1834) مر بأزمة أثناء دراسته بجامعة هال، قرر على إثرها نبذ كافة العقائد الدينية، وبعد اجتياز الامتحان اللاهوتي رسّم قسا وعيّن واعضا، ثم مرشدا روحيا سنة 1796، وشرع مع شليغل بترجمة آثار أفلاطون. كتب "تاريخ نقد الأخلاق السابقة"، ومن مؤلفاته الهامة: "دروس في علم الجمال.

يُنظر: محمد أحمد منصور: موسوعة أعلام الفلسفة، دار أسامة، الأردن، ط1، 2001، ص 190.

^{***} - لكن ماذا يعني البراديغم؟ يتراوح معنى اللفظ الإغريقي براديغما لدى أفلاطون بين تمثيل النموذج أو القاعدة. أما بالنسبة إلى أرسطو فالبراديغم هو الدليل الذي يتأسس على المثال ويوجه إلى التعميم .. واتخذ لفظ "البراديغم" في معجم الأفكار والنقاشات الأنجلوسكسونية معنى المبدأ أو النموذج، أو القاعدة العامة أو مجموع التمثيلات والمعتقدات والأفكار التي تظهر بشكل نموذجي أو تبرز حالات نموذجية، ولقد أعطى "توماس كون" في بنية الثورات العلمية أهمية كبرى لمفهوم "البراديغم". فاستعاد بطريقته الخاصة فكرة أن المعرفة العلمية ليست مجرد تراكم للمعارف، وأن نمط تصور وصياغة وتنظيم النظريات العلمية محكوم ومراقب من قبل المسلمات والمقتضيات الخفية. ولنقترح التعريف الآتي: يتضمن البراديغم، بالنسبة إلى كل الخطابات التي تتم تحت إمرته، المفاهيم الأساسية أو المقولات الجوهرية للفهم، وهكذا يقوم البراديغم بالانتقاء والتحديد والتحكم في عمليات وضع المفاهيم والمقولات وفي المنطق. إنه يعين المقولات الأساسية للقابلية للفهم ويقوم بمراقبة استعمالها.

يُنظر: إدغار موران: المنهج: معرفة المعرفة، الأفكار- ترجمة: يوسف التيبس، إفريقيا الشرق، المغرب، ج3، ج4، 2013، ص 442، 443، 444، 445.

والبراديغم هو مجموعة من التمثيلات الموضوعية في مناهج ومعايير متفق عليها من طرف مجتمع معرفي معين، ولهذا توماس كون في بنية الثورات العلمية يقابله "بالقالب العلمي"، والذي هو مجموعة من المعايير التي يتعرف فيها المجتمع العلمي على الأحكام المتداولة في هذا البراديغم، فهذا الأخير هو الرؤية يضاف لها المنهج، والبراديغم الهيرمينوطيقي هو نمط للرؤية في العالم.

التأويل من اللاهوت إلى نصوص العلوم الانسانية عموماً³، وتقوم جهوده في أساسها على وضع الفهم في مركز الممارسة (البراكسيس) الهيرمينوطيقية، لأنّ الفهم يقوم بقراءة الآخر المتواري خلف النصوص، "وفهم الآخر أفضل مما يفهم نفسه *comprendre l'autre mieusc qu'il ne se comprendre lui même*"****، بينما التأويل (التفسير) يكتفي بالمعنى الظاهر الذي تتيحه الحروف، ف "شلايرماخر" بحث في هيرمينوطيقاه عن ما يعصمنا من سوء الفهم، لذا «فهي اتجاه يحاول تفسير معاني الظواهر التي نشعر أمامها بالاغتراب، والتي تتطلب بذلك فهما وتفسيراً يجعلها مألوفة لنا ومنتمية إلى عالمنا المشترك»⁴.

ويرى "فلهلم دالتاي" Wilhelm Dilthey الذي جعل من التأويل جزءاً من الفهم، أنّ التفسير يخصّ العلوم الطبيعية (علوم المادة)، أما التأويل وسليله الفهم فيخصّ العلوم الانسانية (علوم الروح)، إذ هذه الأخيرة لها منطقها الخاص، والمتمثل في الانفتاح على عالم الحياة، والتأويل عنده كما "شلايرماخر"، لا يعيد بناء مقاصد النصّ بقدر ما يعيد معايشة تجربة الآخر، وما عاناه في حياته، «وبذا ينزل دالتاي الفكر هيغليا من السماء (المعرفة المطلقة والمتعالية) إلى الأرض (معرفة متجذرة في تجربة الحياة، في عالم الحياة)»⁵.

ويتصوّر "هايدغر" الذي يرى في التأويل إنارة وكشفاً للحقيقة، من خلال نقله للهيرمينوطيقا من الإستيمولوجيا إلى الأنطولوجيا، ضمن المنعرج الأنطولوجي للهيرمينوطيقا، أنّه يجب العمل على تجاوز مركزية الذات في صورتها الديكارتية والهوسرية، كما وجب أن يلزم كل زمان نفسه، فلا إمكان من إستعارة أدوات من زمان فانت، لا نُحكمه، ولا نُحسن صناعته أصلاً، ونتحمّل عبء النصوص الذي هو عبئها، ونعيش القلق الذي هو قلقها، لذا إهتمت تأويلية "هايدغر" بتفسير الوجود الإنساني في

³ - هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج، - الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية- ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، راجعه: جورج كتوره، دار أوبا، ط1، 2007، ص 17

**** - يرى "ريكور" أن التأويل/ الفهم عند "شلايرماخر" و"دالتاي" يرتبط بالجوانب النفسية للأفراد، فالفهم في تصور دالتاي هو السيرة التي نتعرف بها على شيء نفسي ما اعتماداً على علامات حسية تكون هي تجلياته، فالفهم انتقال مماثل إلى حياة نفسية غريبة.

Voir : Paul Ricoeur : Du texte a L'action, essais d'herméneutique2. Editions du seiul. paris P 143

⁴ - هانز جورج غادامير: تجلي الجميل ومقالات أخرى، تحرير: روبرت برناسكوني، ترجمة ودراسة وشرح: سعيد توفيق، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ص 7.

⁵ - هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج، ص 18.

العالم/ اللغة، أو الوجود الإنساني المتموضع في الزمانية، ضمن أفق "الكائن هنا" في العالم ("الدازين" "Dasein")، «وبهذا المعنى، لا تسعى هيرمينوطيقا الفهم إلى تأسيس قاعدة شاملة وصالحة لكل مستويات الفهم وإنما على تشكيل وعي نقدي لتناهي "الدازين" إزاء الإمكانيات الأنطولوجية التي تكشف عن وضعيته الخاصة والملموسة»⁶.

ومن ثمة، ما إهتم به "هايدغر" هو ما سمّاه مواطنه "هوسرل" بعالم الحياة المعاش، ففيونيمولوجيا "هوسرل" المتأخرة في كتابه "الأزمة"، إهتمت بقضايا العالم المعيش، ضمن المنعطف الفينومينولوجي للهيرمينوطيقا، ولهذا ظلّ "هايدغر" وفيما لـ "هوسرل"، ولأنطولوجيا الفهم، ضمن إشكالية الوجود الإنساني المتناهي، خصوصا إذا كان الإنسان مشروع قذف به (كائن مقذوف-*être-jeté*) في هذا الوجود/ اللغة؛ هذه الأخيرة هي موطن الفهم ومسكنه.

وضمّت الحلقة التأويلية *Le cercle herméneutique* إلى جانب "هايدغر" "غادامير"، الذي تجاوز الابستمولوجيا* نحو مشروعية الفهم، «فمفهوم "الفهم" الذي تقوم عليه النظرية النقدية لغادامير، يرتد بأصوله إلى إعادة التوجيه الأنطولوجي الخاص بهيدغر، والمتأسس بدوره على تحليل هوسرل للعالم المعيش، حيث أن إدراك هيدغر لزمانية الوجود هو الذي مكّنه من هجر الذاتية المتعالية، ومن ثمة إعتبار الفهم هو الشكل الأصيل لإدراك الوجود - هناك - *Being the* الذي هو الوجود في - العالم- (*world Bieng in the*)»⁷ فالقّهم معرفة مرتبطة بمشاعر الغير، بمعنى أنّه رؤية إستشرافية في مرآة الآخر ومعه، لاسيما إذا كان كل وجود هو وجود مع الآخرين، أو ما سمّاه "غادامير" "الميتراين" *Mit-Sein* "الكائن هناك مع الآخرين".

⁶ - هانز جورج غادامير: فلسفة التأويل - الأصول، المبادئ، الأهداف- ترجمة: محمد شوقي الزين، ص 14

* - قبل التقدم أكثر لنعرض مفهوما قرينا به هو الإبستيقي (الإبستمولوجيا) لميشيل فوكو الذي يعرف كالاتي: "ما يحدد شروط إمكانيات المعرفة". إبستمولوجيا المنهج تهتم بإنتاج التصورات العلمية للنصوص، وتدرس طرائق اكتساب المعرفة وبنياتها من خلال فحص النص فحصا علميا قوامه دراسة العلاقات .

يُنظر: إدغار موران: المنهج - معرفة المعرفة، الأفكار- ترجمة: يوسف تيبس، ص 443

⁷ - ماهر عبد المحسن حسن: غادامير. مفهوم الوعي الجمالي في الهيرمينوطيقا الفلسفية- إشراف: أحمد عبد الحليم عطية، دار التنوير، ص 31.

ولقد عرفت "التأويلية" مع "غادامير" تنوعاً وانفتاحاً في ميادين عديدة، حيث سحبتها على كافة العلوم الإنسانية، في إطار ما يسمّى بـ "عالمية التأويل"^{**}، أي كيف يضحي هذا الأخير عامّاً/ معمّماً/ عالميّاً/ إنسانياً ترفده كلّ المناهج، إذ «وَيَتَمَخَّضُ الجهد الخلاق هنا عن محاولة تدشين نمط جديد من التأويلية يحلّ محلّ المنهج ويسدّ الثغرات التي تتخلف من جراء استخدامه، إذ يسعى غادامير إلى تبين ضرورة الفكر التأويلي للعلوم الانسانية»⁸.

وينفتح "غادامير" في تأويليته على الواقع المعاش، فالممارسة التأويلية عنده لم تتقبّل ذلك الفصل السائد بين النصّ، وما يحيط به، أي تطبيق أفكار النصّ على واقع المؤلّ، وبهذا يعيش المؤلّ النصّ ويعايش أفكاره، فالعقل البشري يحيا التأويل باستمرار دائم، كما أنّ المشهد التأويلي من المسائل الجوهرية في الفكر الإنساني، ويعني أنّ هناك تشكّل للمناهج ضمن وضع راهن للتفكير، ولهذا تتكوّن الدائرة التأويلية عند "غادامير" من القراءة التي يعقّبها الفهم، ثمّ التأويل الذي يعقبه التّطبيق، لذا فـ "أن نقرأ هو أن نفهم، وأن نفهم هو أن نتأوّل، وأن نتأوّل هو أن نتغيّر عمّا نحن عليه"، ومن ثمة "كلّ وقوف أمام النصّ يقتضي فهما، وكلّ فهم يروم تأويلا، وكلّ فهم هو فهم ما، وكلّ فهم هو فهم أولّ، الفهم فهوم، والفهم أفهام، والفهم هو فهم وإنفهام se comprendre أمام النصّ المؤلّ".

والتّطبيق L'application هو العقد النّاطم الذي يربط بين النصّ والواقع المعاش للمؤلّ، الذي يدفعنا إلى التغيّر عما نحن عليه بتأثير من النصّ، ونصبح نعيش هذا النصّ في حياتنا، أي هناك ترجمة له في حياتنا الواقعية، حيث يرتبط النصّ في مضامينه بالواقع اليومي للقارئ، وهذا ما يجسّد مشروعية فهم الفهم، لذا فـ «الفهم، عند غادامير هو توصل إلى تطبيق واستعمال المعنى على وضعيتنا الراهنة وإيجاد أجوبة لمسائلنا وحلول لمشكلاتنا: "يتخذ الفهم دوما دلالة التطبيق لأنّ التأويل الذي

^{**} - عالمية التأويل فيما تعنيه مجاوزة "الأرغانون" (الآلة) المنهجي الصارم (والذي لا يؤسس، بأي شكل من الأشكال، حقيقة العلوم الإنسانية والتاريخية) بإقرار حقيقة متجذرة في التصور والممارسة والتواصل). فغربة التأويلية إنتهت مع إنفتاح التأويلية على عديد المجالات، في شكل تراث مشترك بين عديد العلوم. ولهذا مهمة التأويلية تتمثل في الاهتمام بالنص المكتوب، وتحويله إلى حامل دلالة بتقنيات ومعالج مضبوطة. وهذا الطرح يرجع إلى اللحظة الاسكندرية، كلحظة مهمة في تشكيل اللحظة التأويلية. وبدأ العمل التأويلي مع النصوص التأسيسية الاغريقية القديمة التي أسست الكلاسيكيات الكبرى للحضارة البشرية: الإلياذة، الأوديسا.

يُنظر: هانز جورج غادامير: فلسفة التأويل – الأصول، المبادئ، الأهداف- ترجمة: محمد شوقي الزين، ص 28.
⁸ - هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج – الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية- ص 14 .

نمارسه إزاء التراث يرتبط دوماً بالسؤال الذي طرحه أي مشكلاتنا الخاصة وإمكانية أن يقدم النص المقروء إجابة عن هذه المشكلات»⁹.

ومن ثمة يعمل النص على بناء حاضره ومستقبله، وذلك عن طريق الحوار مع ذوات أخرى، هذه الأخيرة تشاركه هموم الواقع المعاش، وفي هذا يقول "غادامير": «ولكن الفهم بدوره لا يمكن أن يكون فهماً حقاً إلا من خلال الحوار: الفهم لا يمكن أن يتحقق من خلال نزعة منهجية تحاول فيها الذات الاستحواذ على الموضوع وإخضاعه لقواعد منهجية، وإنما من خلال حوار تنفتح فيه الذات على الموضوع أو الأنا على الآخر بهدف الوصول إلى اتفاق أي شيء مشترك نشعر معه بالألفة»¹⁰؛ إقامة حوار مشترك بين "الذات" و "الموضوع"، تقود إلى الألفة داخل العالم المعيش، أو ضمن وجودنا في العالم.

ولا يتفق "غادامير" مع "دالتاي"، في اعتبار أن الفهم منهجاً موضوعياً في مقارنة علوم الفكر، إذ يتجاوز "غادامير" التصلب للمنهج، لأنه يرسم مساراً معيناً يسعى لدراسته كما يتصور هو على حساب النص، إذ المنهج من سمته التسلط، لذا يقدم "الفهم" بديلاً لكل منهجية، لأن المغالاة في هذه الأخيرة قد تحجب عنا الكثير من الحقائق، ولهذا «فالهيرمينوطيقا الغاداميرية تواصل إذن التوجه المعرفي العام للفينومينولوجيا الذي يسعى نحو التحرر من كل نزعة منهجية تحتذي نموذج العلم الطبيعي التقليدي الذي يهدف إلى تأسيس حقيقة موضوعية مطلقة توجد بشكل مستقل عن الإنسان وعالمه المعاش أو عالمه الأليف، وهو النموذج الذي تبنته العلوم الانسانية والفكر الغربي عموماً منذ العصر الحديث»¹¹؛ إذ حاول في فلسفته التأويلية الخروج على المنهجية، من خلال إدراجه للتصورات المسبقة préjugés، ونقد التصور الوضعاني، الذي يقترح بناء علمياً صارماً ومعقداً تسير عليه العلوم الإنسانية، ومن ثمة القضاء على دوغمائية ارتباط الحقيقة بالمنهج، الذي هو مجال العلوم الطبيعية، ف «عودة غادامير إلى العلوم الانسانية هي مسألة نقدية لأسس ومبادئ هذه العلوم بالكشف عن تناهياها الخاص، واستحالة تشكيل معرفة صحيحة تعتمد مطلقاً على صرامة الميتودولوجيا»¹²، ويقدم

⁹ - هانز جورج غادامير: فلسفة التأويل - الأصول، المبادئ، الأهداف، ترجمة: محمد شوقي الزين، ص 23.

¹⁰ - هانز جورج غادامير: تجلي الجميل ومقالات أخرى، ص 11.

¹¹ - المرجع نفسه، ص 12.

¹² - هانز جورج غادامير: فلسفة التأويل - الأصول، المبادئ، الأهداف- ترجمة: محمد شوقي الزين، ص 14.

بدلاً لمقاربة هذه العلوم يتمثل في مفهوم التكوين الفكري، «فهذا التكوين (رقعة ودقة وحذاقة وتعلم، وممارسة ذاتية وفراصة، هو الذي يحدد إطار العلوم الإنسانية، لأن كل المحاولات السابقة مع درويزن ودلتاي وميش وديكارت كان مآلها الفشل في إيجاد صيغة علمية دقيقة خاصة بهذه العلوم على غرار منهج علوم الطبيعة»¹³.

وهذا الحفر في الطبقات الأركيولوجية للمنهج، الذي هو إبستيمولوجيا معقدة للبحث عن اللامنهج، أي عما وراءه من مقولات متاحة لتكوين براديجم التأويل، يدرك "غادامير" أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتخلص من صرامة المنهج وسلطته إلا بالفسحة التأويلية، وهذا أمكن الحديث عن سيادة التأويل في مقابل سلطة المنهج «فالمنهج الذي يسعى غادامير للتحرر منه هو نفس المنهج الذي تسعى الفينومينولوجيا للتحرر منه، أعني نموذج المنهج في العلوم الطبيعية الذي تسيد العلوم الانسانية، والذي يقوم على القواعد والقياس والإحصاء، ويتوخى الدقة والموضوعية، ويدعي أنه المنهج الوحيد لبلوغ الحقيقة»¹⁴، وقد احتل هذا الصرح المعرفي مكانة بارزة بسبب رحابة أفقه ليصبح عالمياً وكونياً، كما وصفه "جان غروندين" "Jean Grondin" تعيشه المعرفة المعاصرة، في كافة مجالاتها، لاسيما حينما سحب غادامير الهيرمينوطيقا على كافة علوم الفكر، وأضحت المعرفة المعاصرة من ثمّة تعيش زمن التأويل كما قال "جان غرايش" "Jean Greisch" *.

وفي مجمل القول ظلت الهيرمينوطيقا حبيسة النزعة الرومانسية، والبعد الفردي المرتبط بمقاصد المؤلف، بيد أنّ "هايدغر" عمل إلى جانب "غادامير" على بناء أنطولوجيا للفهم، تكون أفقا للتفاهم

¹³ - المرجع نفسه، ص 15.

¹⁴ - هانز جورج غادامير: تجلي الجميل ومقالات أخرى، ص 13.

* - عالمية التجربة التأويلية فيما تعنيه أن هذه الأخيرة أضحت نموذجا محوريا ولغة شائعة في الثقافة الإنسانية المعاصرة، على حد قول الايطالي جيانى فاتيمو، فالخيار التأويلي هو الرهان المشروع للمعرفة الانسانية، وقد انطلق شراح غادامير من أمثال "جون غراندان" و"جان غرايش" من هذا الزعم وهو أن تكون للتأويلية الجرأة لكي تطبق في مجالات عديدة مرتبطة بالنص والأدب والقانون واللاهوت والفلسفة .. في إطار "البعد العالي للفكر التأويلي عند غادامير".

Voir : Mohammed Chaouki Zine : L'universalité de la pensée herméneutique chez Gadamer, res publica, Dossier : La Science Nous Dit —Elle La Vérité ? n25, P 2. Voir : Mohammed Chaouki Zine : La Dimension universelle de la pensée herméneutique . Le Tract, Numéro 2 , Volume 1 , 2000, p 16 .

والحوار المشترك، كما ركّز "ريكور" على وسائط: الرمز، والأسطورة، والاستعارة لبناء البعد الفينومينولوجي، والإبستمولوجي للهيرمينوطيقا

3- في التأويل: التفسير وعضلة الفهم:

يذهب "بول ريكور" إلى أنّ مفهوم التفسير L'exégèse الذي أدرجه "دالتاي" آلية لقراءة العلوم الوضعية، قد سلك مسلكا جديدا، من خلال الانفتاح على النموذج اللساني الواصف، فلم يعد مقتبسا من علوم الطبيعة، ولكن من النماذج اللسانية. ففي البدء نفسّر بنيات النص، ثمّ نقدّم لها فهما معينا، وبذا فالنماذج اللسانية ساهمت في دراسة العلاقات التي تحكم النص، إرتباطا وإنسجاما عن طريق تفسيرها، كما أنّ الفهم Compréhension مجال إشتغاله العلوم الإنسانية أو علوم الروح، إذ «في المقابل، يجد الفهم ميدان تطبيقه الأصيل في العلوم الانسانية (أو علوم الروح Greistes wissens chaften كما يدعوها الألمان) حيث للعلم علاقة بتجارب ذوات أخرى أو عقول آخر مشابهة لعقولنا وذواتنا»¹⁵.

والجدير بالذكر، والحال هذه، أنّه بعد الانتهاء من التفسير/ الشرح L'explication، تأتي مرحلة جديدة هي التأويل L'interprétation أو الفهم، الذي يعطي دلالات معينة لهذه البنيات الداخلية، ولهذا يعمل "ريكور" على رأب التباعد بين التفسير والفهم، محاولا إيجاد أرضية وفاق بينهما، وفي «الحقيقة أنه لا يوجد فهم دون تفسير، إذ لا "يفهم" التمثّل نفسه إلاّ لأنه ينظّم بشكل منسجم بفضل المبادئ و القواعد التي تعيد ثبات المواضيع المدركة، أي بفضل جهاز ما قبل تفسيري، وعندما يتشكّل يخضع لعمليات العقل التفسيرية التي تدرسه وتحلله»¹⁶ فالوقوف أمام النص هو تفسير له، هذا التفسير يروم إصدار حكم حوله عن طريق فهمه ومن ثمة تأويله، لذا كان التفسير إقليما خاصا من أقاليم الفهم/ التأويل، إذ «وليس التأويل بطرف ثالث، ولا هو، كما سأحاول توضيح ذلك فيما بعد، باسم للجدل

¹⁵ - بول ريكور: نظرية التأويل – الخطاب وفائض المعنى- ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2003، ص 119.

¹⁶ - إدغار موران: المنهج – معرفة المعرفة، الأفكار- ترجمة: يوسف التيبس، ص 158.

بين التفسير والفهم، بل التأويل حالة خاصة من حالات الفهم، هو الفهم حين يطبق على تعبيرات الحياة المكتوبة»¹⁷.

وبذا كان التفسير عتبة أولى للتأويل، أو هو المدخل المشروع لعملية الفهم عند "ريكور"، لأنه كلما فسرنا أكثر حققنا فهما أفضل، و«نتيجة لما تمّ، سواء كان الأمر متعلّق بالاستعارة أم بالحبكة، أن تفسّر أكثر يعني أن تفهم أفضل En conséquence, qu'il s'agisse de métaphore ou d'intrigue, expliquer plus, c'est comprendre mieux»¹⁸ أو قلّ يصبح التفسير أعلى مراتب التأويل، يتّجه نحو البنية التحليلية للنّص، أما الفهم فيتّجه نحو قصدية الخطاب، أو نحو الملفوظ النّصي، والفهم عنده لا يعكس كيفية وجود الذات في العالم، وإنّما يقدّم وعيا جديدا لامتناهيا لكيفية وجودنا في العالم، و"ريكور" هاهنا، يخرج عن "هوسرل" في عباءته الديكارتية، التي يؤكّد فيها على قرب الذات من ذاتها، نحو التفكّر فيها من خلال المباشرة، لاسيما إذا كان كل فهم هو فهم من بعيد، لكي تؤوّل ذاتها على نمط مغاير وأفضل، ومن ثمة هناك جدل بين ثنائية التفسير والفهم، لكن يمكن الوصول إلى دائرة للإتفاق من باب إرتباط أحدهما بالآخر، أو الصراع بينهما، إذ «يبدو للوهلة الأولى أن مفهومي الفهم والتفسير يغطيان بعضهما البعض إلى حد ما، ربما يتميز الأول بدلالة تركيبية والثاني بدلالة تحليلية»¹⁹.

كما أنّ مفهوما الهيرمينوطيقا والتأويل، يكادا يكونا سيان عند "بول ريكور"، وإن كان مفهوم الهيرمينوطيقا عنده يأخذ شكلا شموليا بالنظر إلى مفهوم التأويل، أو قد يكون هذا الأخير آلية في يد نظرية أعمّ هي الهيرمينوطيقا، إذ التأويل يفسّر النّص في معناه الدقيق، ومن زاوية واحدة، «وفي نظرية للعلامات تغض الطرف عن الفرق بين الكلام والكتابة، وقبل كل شيء لا تؤكّد على جدل الواقعة والمعنى، يمكن توقّع أن يظهر التأويل بوصفه مجرد مقاطعة ملحقّة بامبراطورية الاستيعاب والفهم»²⁰.

أما "الهيرمينوطيقا" بما هي "فن الفهم"، أو تأويل النصوص؛ فتهتمّ بالحيثيات الكلية التي تخصّ النّص، وتعمل على تأويل رموزه و علاماته بشكل إجمالي، فالتّصوص نباشرها بالمداورة كما يرى

¹⁷ - بول ريكور: نظرية التأويل – الخطاب وفائض المعنى- ص 120.

¹⁸ - Paul Ricoeur : temps et récit –l'intrigue et le récit historique – tome 1, édition du seuil, 1983, P 11

¹⁹ - إدغار موران: المنهج – معرفة المعرفة، الأفكار- ترجمة: يوسف تيبس، ص 150.

²⁰ - بول ريكور: نظرية التأويل – الخطاب وفائض المعنى- ص 120.

"ريكور"، ولا نباشرها بطريقة مباشرة، عن طريق الوسائط أو الحوامل، «ولذلك تتخذ إعادة بناء معمار النص شكل عملية دائرية، بمعنى أنّ مسلّمات من نوع ما عن الكل تضمن عند التعرف على الأجزاء. والعكس صحيح، فعند تفسير التفاصيل نفسر الكل. فلا ضرورة، ولا دليل على الخوض في أيها مهم وأيها غير مهم»²¹، ومن ثمة فالهيرمينوطيقا ترتبط عنده بجانب أعمّ هو الفهم، أما التأويل فيرتبط بالتفسير كون التأويل يحمل سمة الإجراء، كما تكون الهيرمينوطيقا فاصلا بين التأويلات المتصارعة، عن طريق تحليل الأفهام في مستوياتها المتعددة، والتي يتحقّق بها الاستقلال الدلالي.

ولهذا احتلّ التفسير والفهم عنده مكانة بارزة، رغم الاختلاف المنهجي الموجود بينهما، يمكن الوصول إلى أرضية مشتركة، إذ «وكانت النظريات الرومانسية في التأويل، ولاسيما عند دالتاي وشلايرماخر، قد حاولت إحداث مطابقة وتماه بين التأويل ومقولة "الفهم"، وعرفت الفهم بأنه التعرف على قصد الكاتب من وجهة نظر المستقبلين البدائيين في موقف الخطاب الأصيل»²².

واللافت للنظر، والحال هذه، أنّ ما من نظرية للتأويل إلا وترتبط بمشكلة الكتابة، لاسيما إذا كانت هذه الأخيرة هي التجلي العيني للخطاب، إذ «بقدر ما تكون التأويلية تأويلا موجها نحو النص، وبقدر ما تكون النصوص، من بين أشياء أخرى، حالات من اللغة المكتوبة، فما من نظرية تأويل ممكنة لا تشتبك مع مشكلة الكتابة»²³.

وما يشكّل الخطاب هو الواقعة اللغوية، من حيث هي قضية أو خبر، أو قل هو جدل الواقعة والمعنى في الجملة، ولذلك ينبغي صياغة "الخطاب بوصفه واقعة"، من منطلق العلاقة التي تشكّل الخطاب بذاته، وهي العلاقة بين الواقعة والمعنى، لذا فاللغة عملا يعني الصراع بين التفسير والفهم، بما هما مفهومان يهتمان بتوسيع نظرية التأويل، ومن ثمة قراءة النص وتخمينه وفهمه واستنطاقه واستيعابه، و«تصبح مشكلة الكتابة مشكلة تأويلية، حين تتم الإحالة إلى قطبها المكمل، وهو القراءة، وأعني بالتمكّن، النظير للاستقلال الدلالي، الذي يفصل النص عن كاتبه. التملك يعني "استملاك" ما هو "غريب"»²⁴، فالفهم قد يحمل معنى التملك، هذا الأخير لا يعني مفهوم التفرد والتسلّط، ومن ثمة

²¹ - المرجع نفسه، ص 125.

²² - بول ريكور: نظرية التأويل - الخطاب وفائض المعنى - ص 52، 53.

²³ - المرجع نفسه، ص 55.

²⁴ - المرجع نفسه، ص 79.

الاستحواذ، وإنما يعني إستملاك ما كان غريبا في السابق، من خلال إختصار المسافات، وتنزيل النص في الواقع من خلال إنصهار أفق النص مع أفق الواقع، فما نتملكه هو ما ينكشف وما يتاح لنا من ميكانيزمات، وطرق ممكنة للنظر إلى الأشياء، والعمل على تأويلها، حيث «ما ينبغي تملكه هو معنى النص نفسه، مفهومه بالمعنى السيل المتحرك بوصفه إتجاه الفكر الذي يفتتحه النص. بعبارة أخرى، ما ينبغي تملكه ليس سوى قوة إنكشاف عالم يشكل إحالة النص»²⁵.

ولهذا يقدم "ريكور" فعل الكتابة بوصفه الموضوع الذي يدور حوله جدل التفسير والفهم، كونها الوجه الآخر لتحليل النص، بوصفه فعلا من أفعال الخطاب، ما يحدث تطابقا بين البنية الجدلية للقراءة مع البنية الجدلية للخطاب، إذ «وما دام فعل القراءة يشكل نظيرا لفعل الكتابة، فإن جدل الواقعة والمعنى، الذي يشكل جوهر بنية الخطاب، كما رأينا في المقال الأول، يولد جدلا ملازما له في القراءة بين الفهم أو الاستيعاب (الذي هو: Versthen في التراث التأويلي الألماني) والتفسير (الذي هو: erkloren في هذا التراث نفسه»²⁶.

يتخذ الفهم إذاً؛ شكل "تخمين" في البداية، فأول فعل من أفعال الفهم هو "التخمين"، لذا ف «في البداية الفهم مجرد تخمين»²⁷ ولهذا تساءل "ريكور": لماذا ينبغي أن يتخذ أول فعل من أفعال الفهم شكل تخمين؟ وما الذي يجب تخمينه في النص؟ ومن ثمة يطرح التخمين أفقا لبناء القصد النصي (المعنى)، الذي هو شكل المعنى الذي يتم تخيله، وهو إعادة تشييد المعمار النصي من جديد، بعيدا عن قصد مؤلفه، أي: علينا أن نخمن المعنى، لأن مقاصد المؤلف بعيدة المنال، وبعدها يحدث الاستقلال الدلالي للنص عن قصد مؤلفه، وما يحتاجه التملك هو قوة ثانية ألا وهي الاستيعاب، بما

²⁵ - المرجع نفسه، ص 145.

²⁶ - بول ريكور: نظرية التأويل - الخطاب وفائض المعنى- ص 118.

* - يقول هيرش قولاً مقنعاً: "إن فعل الفهم في البداية تخمين لطيف (أو مغلوطة) ولا توجد مناهج لتكوين التخمينات، ولا قواعد لتوليد البصائر. إذ تبدأ الفعلية المنهجية للتأويل حين تباشر باختيار ونقد تخميناتنا. بول ريكور: نظرية التأويل - الخطاب وفائض المعنى- ص 124. ويوازي التخمين ما سماه "شلايرماخر" بلحظة "التنبؤ"، والصلاحية ما سماه باللمحة الـ "نحوية" للتأويل، والتخمين عند "بول ريكور" هو فعل بناء الدلالة.

يُنظر: بول ريكور: من النص إلى الفعل - أبحاث التأويل- ترجمة: محمد برادة، حسان بورقية، دار الأمان، الرباط، ط1، 2004، ص 138.

²⁷ - بول ريكور: نظرية التأويل - الخطاب وفائض المعنى- ص 121.

هو معطى يعتبر تتمّة معرفية له، أي يعدّ إستكمالاً وتتمّة لفعل الفهم، «ومن أجل تقديم عرض تعليمي لجدل التفسير والفهم، كمرحلتين من عملية فريدة، أقترح وصف الجدل أولاً كنقطة من الفهم إلى التفسير، ثم كنقطة من التفسير إلى الاستيعاب»²⁸.

وبهذا يعتبر "الاستيعاب" فاعلية ثانية للفهم، لأنّه تملّك للمعنى، وذلك بمعنيّة تفسيرات وشروح تصحبه، حيث «في المرة الأولى، سيكون الفهم إمساكاً ساذجاً بمعنى النصّ ككل. وفي المرة الثانية سيكون الاستيعاب نمطاً معقداً من الفهم، تدعمه إجراءات تفسيرية»²⁹ ويغدو الفهم بعدها وسيطاً بين مرحلتين: التّخمين بما هو تكهن كما يسميه "شلايرماخر"، وترجمة للمعنى إلى معنى لفظي، والاستيعاب أو التملّك بما هو نمط معقّد للفهم، كما أنّ هذا التملّك ليس إستحواذاً بمعنى الأنانية، والتّرجسية، والتشبّث بالأشياء، وإنّما إجراء نقدي يصحب الفهم، من خلال مطاوعة التّصوّر، والعالم الذي يقترحه النصّ، لاسيما والقراءة وسيط يعمل على تصوير عالم مغاير، ولهذا «في البداية، الفهم مجرد تخمين، وفي النهاية، يرضي الفهم مفهوم التملّك الذي وصفناه في المقال الثالث بكونه إعادة الوصل بنوع من التمييز المرتبط بعملية موضوعة النصّ ككل»³⁰.

ومن ثمة تنوّع مسارات ودوائر بناء المعنى، بدءاً من الافتراض والتّخمين، إلى الفهم والتمثّل، وبالتالي؛ فالفهم هو توليد واقعة جديدة من النصّ إنطلاقاً من الواقعة الأولى، لذا؛ فالتأويل هو فعل يقوم به النصّ، ف «نحن مطالبون في نظريّ كور بتملك قصيدة النصّ ذاته. وهذه القصيدة لا تتطابق مع القصيدة المفترضة لدى المؤلّف ... ولا مع القصيدة الذاتية لدى القارئ بل، تتطابق مع ما يريده النصّ»³¹ هذا التملّك ناتج عن التواشج الذي يحدث بين مقاصد النصّ وأفاقه، ومدرّكات القارئ؛ و«هكذا يتقابل أفقان لفهم النصّ: أفق النصّ، الذي أودع فيه ذاكرته الوجودية عن الماضي، وأفق

²⁸ - المرجع نفسه، ص 121

²⁹ - المرجع نفسه، ص 121

³⁰ - المرجع نفسه، ص 121.

³¹ - عبد الكريم شرفي: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، -دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية- منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص 53.

القارئ الذي يريد فتحه على المستقبل. وينصهر هذان الأفقان ليولدا عملية القراءة في تملك النص وفهمه»³²، وبذا يكون النص هو خطاب الكاتب، والتأويل هو خطاب القارئ.

وتبقى التأويلية سردية جديدة، تدفع بثوب مغاير في كل مرة، إذ هناك إعادة لتصوّر أرشيف الهيرمينوطيقا، وبعثه من جديد، مع المحافظة على نموذج "الفهم" الذي تمحورت حوله، إبتداء من شلايرماخروالتاي، حيث لم يعد الفهم مرتبطا بمقاصد المؤلف النفسية، وإنما مرتبطا بتشديد عالم يمكن عن طريقه تحقيق وجود ممكن ومختلف، وكيف لا، والنص يحيل على مفارقات الوجود اللامتناهية، من خلال قذف النص في أتون الحياة.

المصادر والمراجع:

- هانز جورج غادامير: فلسفة التأويل – الأصول، المبادئ، الأهداف، ترجمة: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت
- عبد الغني بارة: الهيرمينوطيقا والفلسفة – نحو مشروع عقل تأويلي- منشورات الإختلاف، الجزائر، والدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008
- أحمد شوقي الزين: الإزاحة والاحتمال – صفائح نقدية في الفلسفة الغربية- منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008
- محمد أحمد منصور: موسوعة أعلام الفلسفة، دارأسامة، الأردن، ط1، 2001.
- إدغار موران: المنهج: معرفة المعرفة، الأفكار- ترجمة: يوسف التيبس، افريقيا الشرق، المغرب، ج3، ج4، 2013
- هانز جورج غادامير: الحقيقة والمنهج، – الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية- ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، راجعه: جورج كتوره، دار أويا، ط1، 2007
- Voir : Paul Ricoeur : Du texte a L'action, essais d'herméneutique2. Editions du seiul. paris P 143
- هانز جورج غادامير: تجلي الجميل ومقالات أخرى، تحرير: روبرت برناسكوني، ترجمة ودراسة وشرح: سعيد توفيق، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة.
- هانز جورج غادامير: فلسفة التأويل – الأصول، المبادئ، الأهداف- ترجمة: محمد شوقي الزين، ص 14
- إدغار موران: المنهج - معرفة المعرفة، الأفكار- ترجمة: يوسف تيبس، ص 443

³² - بول ريكور: نظرية التأويل – الخطاب وفائض المعنى- ص 17 .

- ماهر عبد المحسن حسن: غادامير. مفهوم الوعي الجمالي في الهيرمينوطيقا الفلسفية- اشراف: أحمد عبد الحليم عطية، دار التنوير.
- Voir : Mohammed Chaouki Zine : L'universalité de la pensée herméneutique chez Gadamer, res publica, Dossier : La Science Nous Dit –Elle La Vérité ? n25, P 2. Voir : Mohammed Chaouki Zine : La Dimension universelle de la pensée herméneutique . Le Tract, Numéro 2 , Volume 1 , 2000, p 16 .
- بول ريكور: نظرية التأويل – الخطاب وفائض المعنى- ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2003،
- ¹ - Paul Ricoeur : temps et récit –l'intrigue et le récit historique – tome 1, édition du seuil, 1983, P 11
- بول ريكور: من النص إلى الفعل – أبحاث التأويل- ترجمة: محمد برادة، حسان بورقية، دار الأمان، الرباط، ط1، 2004،
- ¹ - عبد الكريم شرفي: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، -دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية- منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007.